الشرق الأوسط
ASHARQ AL-AWSAT
جريدة العرب الدولية

الاحد 13 محرم 1422 هـ 8 ابريل 2001 العدد 8167

الحالة السعودية

تركي الحمد

مقالات سابقة للكاتب
إبحث في مقالات الكتاب

بالنسبة لكثير من المراقبين، عربا كانوا أو اجانب، تشكل السعودية حالة خاصة، حالة خاصة بمعنى ان كل ما يجري فيها، أو ما يجري عليها، أو ما يصدر عن المسؤولين فيها من أقوال وأفعال، هو شيء يحتاج الى تفسير خاص، ومنطق خاص لفهمه، مهما كان واضحا وجليا، أو عاديا وروتينيا. ربما ان منطق التحليل السياسي يوجب ان يكون هناك قدرة لدى المحلل على قراءة ما بين السطور، أو البحث عن حقيقة الأمور وراء الكواليس، وفي أروقة السياسة ومناوراتها. ولكن إذا كان هذا صحيحا بالنسبة لعالم السياسة عموما، فإنه يصبح نوعا من الهجاس حين يكون الأمر متعلقا بعالم السياسة السعودية، الداخلي منها والخارجي. فالسعودية وما يجري فيها، شيء هو أقرب الى جبل الجليد العائم، الذي يخفي أكثر مما يظهر بالنسبة للكثيرين. خذ التفجيرات الأخيرة مثلا، التي تبين ان وراءها شبكة لتجارة الخمور. فرغم ان الداخلية السعودية كشفت عن هذه الشبكة والبارزين من اعضائها، إلا ان هناك من يبحث عن اهداف أخرى، لا علاقة لها بخمر أو مخمورين. نعم هناك معلومات كثيرة لم تكشف عن هذه الشبكة واعضائها، وربما شبكات أخرى، لحساسيات أمنية أو اجتماعية أو غيرها ربما، ولكن المعلن عن اهدافها ونشاطاتها هو الأساس. ان يأتي احدهم ويحاول ان يتبين دوافع سياسية غامضة وراء ذلك، رغم انه لا معلومات أولية يمكن الاستناد اليها في ذلك، هو ما نتحدث عنه هنا حول «غموض» الحالة السعودية لدى البعض، وهم كثيرون. هذا لا يعني ان السعودية مجتمع ملائكي لا عيوب فيه، او ان السياسة السعودية خالية من المعارضة والمعارضين ونحو ذلك، بل هناك هذا وهناك ذاك، مثل بقية بلاد الله اجمعين. المقصود في النهاية هو ان عالم السياسة السعودية يبقى طلسما يتوجب حله، مهما كانت الطلاسم مفقودة في بقية بلاد الرحمن. وربما كانت السعودية ملومة جزئيا في هذا المجال، فسياسة الصمت والتعتيم الاعلامية، التي كانت مطبقة بإحكام الى عهد قريب، هي التي جعلت في النهاية من السعودية حالة خاصة، وقصة من قصص كليلة ودمنة، وأيام الشاطر حسن، وثارات الزير سالم في اذهان الكثيرين. وما الحديث عن التفجيرات الاخيرة إلا مجرد مثل، وعلى أساسه يمكن القياس.

فرضت «الحالة السعودية» نفسها على الذهن هنا، بعد الاطلاع على كم هائل من تحليلات وتخرصات وتأملات حول حادثة لا اعتقد ان لها تلك الأهمية الكبيرة، ولكنها لا بد ان تعني الكثير طالما انها متعلقة بالسعودية، وبذلك نعني عدم حضور ولي العهد السعودي، الأمير عبد الله بن عبد العزيز، لمؤتمر القمة العربي الأخير في عمان. ورغم ان السعودية حضرت المؤتمر، وبرئاسة مسؤول كبير في الدولة هو الأمير سلطان بن عبد العزيز، إلا ان التحليل، كل التحليل تقريبا، انصب على غياب الأمير عبد الله و«سبب» هذا الغياب و«الأسرار» التي تقف وراء الغياب، وليس على مضمون الموقف السعودي في القمة الذي لا علاقة له بحضور ولي العهد من عدمه، طالما انه يقف وراء هذا الموقف حتى لو بقي في الرياض. لماذا غاب الامير عبد الله؟ البعض ذكر ان السبب هو تجنب الإحراج مع الوفد العراقي، خاصة لقاء نائب الرئيس العراقي عزة ابراهيم، يا له من سبب! وكاتب عربي آخر حاول ان يوحي بوجود رابط بين رسالة ارسلها الرئيس الامريكي جورج بوش الى الأمير عبد الله عشية انعقاد القمة وبين «حادثة» الغياب.

ورغم ان مضمون الرسالة لم ينشر، إلا ان الكاتب سمح لنفسه بأن يوضح ان مضمون الرسالة يرتكز بلا ريب على ثلاثة مطالب امريكية من الامير عبد الله: وقف «العنف» الفلسطيني، وعدم التشدد مع حكومة شارون، والتشدد في الموقف من العراق. ورغم ان كل القادة العرب تقريبا تلقوا رسائل مماثلة، وهي مسألة عادية في مثل هذه المناسبات، إلا ان الكاتب ذكر الأمير عبد الله وحده بالاسم، موحيا لمن لا خبرة لديه في هذه الامور، بأنه وحده من تلقى رسالة امريكية، ووراء ذلك ما وراءه من مضامين وأسرار، خاصة في حالة مثل الحالة السعودية. فالأمير لم يحضر بالتالي، لانه لا يستطيع ان يخالف المطالب الامريكية الواردة في رسالة بوش من ناحية، كما انه لا يستطيع ان يلتزم بها في حالة الحضور من ناحية أخرى، في ظل الحماس العربي لدعم الانتفاضة ورفع الحصار عن العراق، وبالتالي فإن عدم الحضور هو الحل الأسلم في مثل هذه الحالات. هذا هو ما توحي به تحليلات هذا الكاتب، حين تتكامل الصورة العامة للتحليل، خاصة وهو ينصح في النهاية بعدم الخوف من امريكا، وكأنه يشير بطرف خفي إلى ان غياب الأمير هو نوع من الخوف والتردد. ورغم ان رئيسا عربيا مثل الرئيس محمد حسني مبارك تلقى رسالة مماثلة، وشكرا لاحقا من الرئيس الامريكي على جعل بيان القمة أكثر ليونة، ونال مدحا طيبا من الكاتب، بصفته أحد الذين يعرفون كيف يتعاملون مع الولايات المتحدة دون وجل، إلا ان الموقف السعودي عامة، وغياب الأمير عبد الله بن عبد العزيز، يبقى هو الغامض، وهو الملوم في النهاية على ليونة قرارات القمة الأخيرة، نتيجة الخضوع للارادة الامريكية بطبيعة الحال.

فنعم، يتمتع كثير من الزعماء العرب والانظمة العربية بقدرة عجيبة على قول الشيء وعكسه، فعل الشيء ونقيضه في ذات الوقت. فهم في العلن مثلا، يرفعون شعار تحرير فلسطين، كل فلسطين، ومن النهر الى البحر، أو حتى من بعض النهر وحتى بعض من البحر، في ذات الوقت الذي يتفاوضون فيه سرا على مجرد شبر هنا أو شبر هناك. يتغنون بالمقدسات وضرورة تحريرها من «نير اعداء الأمة» والدفاع عن شرف الأمة وكرامتها، ونحو ذلك من كلمات فقدت معناها، في الوقت الذي يعتبرون فيه هذه المقدسات أكواما من حجر لا تعني شيئا، في الجلسات السرية. يشجبون امريكا وما تفعله امريكا، في ذات الوقت الذي يهرعون فيه اليها، عند اي اشارة من اي مسؤول صغير في اي ادارة امريكية. يوهمون الشعوب بالشعارات والخطب الرنانة، بانهم يعملون من أجلها ولمصلحتها، طالما ان الثمن المدفوع هو مجرد كلمة تقال هنا أو هناك، في ذات الوقت الذي لا تهمهم فيه إلا أنفسهم وذواتهم، وكل ما يخدم المصلحة الشخصية هو خير مطلق بالنسبة لهم. بإيجاز العبارة، فإن لكثير من الزعامات العربية قدرة عجيبة على اللعب «بالبيضة والحجر»، كما يقولون، دون ان يرف لهم جفن، ودون ان تفارق البسمة البرينة محياهم طوال الوقت. قد يكون هذا نوعا من الموهبة التي وهبوها، وقد يكون نوعا من السياسة لا نعلمه، ولكنه بالنسبة لكاتب هذه السطور شيء آخر لا علاقة له بموهبة أو قدرة. شيء لا أريد ان اسميه، ولكنه معروف لا يحتاج الى تعريف.

الأمير عبد الله بن عبد العزيز، رجل صريح، صراحة الانسان الذي يقول ما يعتقد، ويعتقد ما يقول. مشكلة الأمير عبد الله بالتالي انه رجل لا يحسن اللعب بالبيضة والحجر، ولا يحسن القفز على الحبال وبينها، ليس لأنه لا يعرف المكر واساليبه، ولكن لانه يستهجنه ولا يريده، وهذا ربما عد عيبا خطيرا في منطقة بليت باصحاب الشعارات، ومتقني فن البروز الاعلامي والدعائي، حتى اصبح جزءا من الخطاب السياسي العام في المنطقة. فهو لا يستطيع ان يقول شيئا ويفعل عكسه. وإن قال شيئا وتبين له انه لا يستطيع فعله، لهذا السبب أو ذاك، فالسياسة في النهاية هي فن الممكن، فإنه لا يتراجع عنه، أو يحاول فعل النقيض، بقدر ما يصمت، في انتظار ان تنضج الاوضاع لتحقيق ما يؤمن به. مشكلة الأمير عبد الله بن عبد العزيز ان ما في قلبه على لسانه، وما يقوله لسانه هو ما تفعله يده. عيب خطير في منطقة مثل منطقتنا، وهو عيب ارجو ان لا يبرأ الأمير من مثله.

فالأمير عبد الله مثلا لا ينفي ان السعودية واحدة من حلفاء واصدقاء الولايات المتحدة في المنطقة، وهذه حقيقة لا توجب الخجل أو الاخفاء، طالما ان المصالح المشتركة هي قاعدة التعامل بين الطرفين، ولكن ذلك لا يعني ان تكون تابعا امريكيا، أو حتى «مستعمرة امريكية»، كما يروج البعض، وهم لن يقتنعوا بغير ذلك على اي حال، حتى لو انقطعت كل علاقة بين السعودية والولايات المتحدة. دول كثيرة تعلن العداء لامريكا، ولكنها على الجانب الآخر، وفي حقيقة الأمر، هي المنفذ الفعلي للسياسة الامريكية، ورغم ذلك فإنها هي الدول القومية الوحيدة في بعض الاذهان التي تبحث عن حقيقتها الخاصة، أو لا تهمها الحقيقة من الاساس. ومن ناحية ثانية، فإن مواقف الأمير عبد الله معروفة، سواء بالنسبة لأمريكا أو غير أمريكا. ليست مواقف شجب لفظية لامتصاص غضبة جماهير محبطة، وليست مواقف انفعالية ساخنة لا تلبث ان تبرد بعد ان ينقشع الغبار، وليست مواقف تغطية لما يجري بين الكواليس وفي الدهاليز، بقدر ما هي مواقف تعبر عن علاقات عقلانية مع الولايات المتحدة وغيرها من دول، ولكن ضمن حدود المصالح المشتركة، وليس وفق قواعد التبعية والانقياد الاعمى، في منطقة تشكل العقلانية طلسما من طلاسمها ربما، ومواقف الأمير السابقة خير برهان.

فمثلا وخلال تشييع جنازة الملك حسين رحمه الله، طلب الرئيس بيل كلنتون من الأمير عبد الله ان يكون هناك لقاء على مستوى القمة مع الاسرائيليين الحاضرين، فكان رد الأمير باختصار وحسم: «للصداقة حدود». لقد كان بإمكان الأمير ان يوافق على ما طلبه الرئيس الامريكي آنذاك، ويتم كل شيء بسرية تامة، ككل شيء في دنيا العرب، «ولا من شاف ولا من دري»، في الوقت الذي اصبح فيه اللقاء مع الاسرائيليين من الأمور الطبيعية في المنطقة، ولكن الأمير رفض العرض جملة وتفصيلا. بل هل كان يمكن للأمير عبد الله ان يرفض طلبا امريكيا لو ان العلاقة مع الولايات المتحدة هي علاقة خضوع وتبعية، مستعمِر ومستعمَر؟ والأهم من كل ذلك، ان الخبر، أي خبر الطلب الامريكي، والرفض السعودي ممثلا بالأمير عبد الله، لم يأت من مصادر سعودية أولا، بقدر ما تسرب من مصادر أخرى لا علاقة لها بالسعودية. الم أقل لكم ان الأمير لا يحسن اللعبة الاعلامية والدعائية، أو هو لا يريد ان يحسنها حقيقة، اذ اعتبر رده الآنف ردا طبيعيا، صادرا عن رجل واضح الرؤية، يفكر بمعيار واحد لا علاقة له بدعاية أو إعلام، قبل ان يكون صادرا عن مسؤول في دولة، وفي دولة عربية بالأخص، امتهن بعض مسؤوليها لعبة الدعاية والاعلام، والتلاعب بالألفاظ حتى فقدت معناها ومبناها.

وخلال مؤتمر القمة العربية في القاهرة في شهر اكتوبر الماضي، كان الأمير عبد الله هو الوحيد من بين كل المجتمعين من قادة دول العرب، الذي انتقد الموقف الامريكي صراحة وعلنا من القضية الفلسطينية، والوحيد الذي طرح طرحا عمليا قابلا للتطبيق من أجل القضية، فيما كانت بقية البيان كالعادة: مجرد شجب واستنكار ودعم لفظي. وفي مؤتمر القمة الاسلامية في الدوحة، كانت السعودية، ممثلة بالأمير عبد الله، هي الداعية إلى قطع العلاقات الدبلوماسية مع أي دولة تعترف بالقدس عاصمة لإسرائيل، حتى لو كانت الولايات المتحدة، رغم التحالف التقليدي معها. لا أعتقد أن قومية الأمير عبد الله تحتاج إلى برهان أو مدافع عنها، ولكن المشكلة، إن كان هنالك مشكلة، هي أن هذه القومية عقلانية المحتوى، متماهية الشكل والمضمون، وليست شعارات وخطابات يبدو أن العرب أدمنوها إدمان المدمن لمادة إدمانه.

ولكن يبقى السؤال: لماذا إذاً لم يحضر الأمير عبد الله مؤتمر القمة الأخير؟ والسؤال حقيقة يجب أن يكون: وهل من الضروري أن يحضر الأمير عبد الله؟ مواقف الدول وقراراتها الكبيرة تتخذ مسبقاً، وليست وليدة تلك اللحظة التي يحضر فيها المسؤول هذا التجمع أو ذاك. فالقمة العربية الأخيرة، وغيرها من قمم، اتخذت قراراتها قبل انعقاد القمة، عن طريق اجتماعات وزراء الخارجية الذين يناقشون التفاصيل، ويرجعون إلى حكوماتهم، قبل الاتفاق على القرارات الأخيرة. أما حضور القادة أنفسهم، فهو للتصديق في النهاية على تلك القرارات التي نوقشت قبل الانعقاد، وربما مناقشة ما قد يستجد، دون أن يكون ذلك خروجاً على الخط العام. هكذا تجري الأمور في عالم المؤتمرات السياسية، وما القادة فيها إلا ممثلون عن دولهم وليس بأشخاصهم. فالدولة هي التي تحضر المؤتمر أو القمة، وليس فلاناً أو فلاناً. فالأمير عبد الله بن عبد العزيز نفسه يحضر المؤتمرات ممثلاً للدولة، ونيابة عن قائد الدولة، الذي هو الملك فهد بن عبد العزيز، بمثل ما أن الأمير سلطان بن عبد العزيز يحضر ممثلاً للدولة، ونيابة عن الملك وولي العهد. هذا هو الأمر بكل بساطة، ولكن البسيط يصبح معقداً في مثل الحالة السعودية، وخاصة عندما تكون البساطة متمثلة في مسؤول مثل الأمير عبد الله بن عبد العزيز. نعم هناك تفصيلات ودقائق قد تكون

مثيرة للمراقب السياسي، مثل: هل كان الزعيم الغائب مريضاً، أم أن هنالك اختلافاً في وجهات النظر بين أفراد النخبة السياسية الحاكمة، أم أن هنالك غضباً معيناً من شيء معين، أم أن هنالك عوامل خارجية أو داخلية أو هما معاً، دفعت هذا الزعيم أو ذاك إلى الغياب. دقائق مثيرة لا شك، وقصص تعد خبطات صحافية ربما للصحافي المتحمس، ولكنها في النهاية لا تؤثر على ذات الحدث محل التحليل، وهو قمة عمان الأخيرة وغياب الأمير عبد الله. ولا أجد بداً في نهاية هذا المقال من ترديد المثل القائل: «امشي عدل، يحتار عدوك فيك»، وصفاً لقضية أعتقد انها بسيطة وواضحة، ولكن من اعتاد عدم الوضوح، يرى العقد في كل فعل، والعفاريت في كل قول، وامريكا في كل نسمة هواء.

نواصل حديث العنف والديمقراطية الأسبوع المقبل إن شاء الله.

مشاركة >> >
Tweet

طباعة بريد